لذة النص ولغة الكشف
قراءة في ملامح العرفان الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر

The pleasure of the text and the language of unveiling
A reading of the features of sufi gnosis in contemporary Algerian poetry

الدكتورة/ سماح بوعمامة

قسم الأدب والنقد العربي-جامعة باتنة 1 (الجزائر)
مخبر المتخيل الشفوي بين حضارة المشافهة من جهة وحضارتي الكتابة والصورة من جهة أخرى، جامعة باتنة 1.
samah.bouamama@univ-batna.dz

تاريخ الإيداع: 2025/04/02 تاريخ القبول: 2026/06/25 تاريخ النشر: 2026/09/15

ملخص:

يعد الخطاب العرفاني الصوفي من أبرز الخطابات الروحية والفنية، لما يحويه من مقومات جعلته يلج أسوار النموذج المعرفي الإنساني. ولا مراء أن الشعراء الحداثيين قد وجدوا في النزعة الصوفية منفذا للولوج إلى عالم المثل بكل معانيه وتجلياته، واتخذوا من العرفان سبيلا لبلوغ حقيقة الوجود. فالصوفية التي يتوجها العرفان ما هي إلا رحلة نحو أعماق الروح وأسرارها، وتنشد الانعتاق من قيود الوجود المادي للأشياء، طمعا في ملامسة جوهر الحقيقة الكامن وراء حجب الظاهر.

لقد كان العرفان بالنسبة للشعر روحا، إذ منح له ما لم تمنحه الأنماط المعرفية الأخرى، فحرره من قيود المباشرة ليفتح أمامه أبواب العالم والذات واللغة، هذه الأخيرة لغة تجاوزت النسق العادي للغة وكذا طريقة التفكير والصياغة، إنها لغة محملة بالدلالات المعرفية، تسفر قراءتها عن تشابك في العلاقات واستحالة في المعاني.

وعليه تسعى هذه الورقة البحثية لمحاورة بعض النصوص الشعرية الجزائرية المعاصرة قصد كشف ملامح العرفان الصوفي والنموذج المعرفي فيها.

الكلمات المفتاحية: التصوف، العرفان، الشعر، الكشف، الحقيقة.

Abstract:

Mystical Sufi discourse is among the most prominent spiritual as well as artistic discourses, given the elements it contains that have enabled it to penetrate the boundaries of the human cognitive paradigm. There is no doubt that modernist poets have found in the Sufi tendency a gateway to entering the realm of ideals in all its meanings and manifestations. They have adopted gnosis as a path to attaining the truth of existence. Sufism, crowned by gnosis, is nothing but a journey that seeks the depths of the soul and its secrets, aspiring to liberation from the constraints of the material existence of things, in the hope of touching the essence of truth concealed behind the veils of appearance.

For poetry, gnosis has been akin to a spirit, granting it what other epistemic patterns could not. It liberated poetry from the constraints of directness and opened before it the horizons of the world, the self, and language. This language transcends the conventional system of expression as well as traditional modes of thinking and formulation; it is a language laden with cognitive significations, whose reading reveals an intricate network of relations and an indeterminacy of meanings.

Accordingly, this research paper seeks to engage with some contemporary Algerian poetic texts in order to uncover the features of Sufi gnosis and the cognitive paradigm within them.

***key words**:* Sufism, Gnosis, Poetry, Unveiling, Truth

مقدمة:

لا شك أن الشعراء الجزائريين الحداثيين قد أدركوا أن الطرائق التعبيرية التقليدية لم تعد قادرة على نقل تجربتهم الشعرية، فجنحوا نحو الخطاب الصوفي يستمدون منه أداته الفاعلة في التمرد على قوانين العقل والمنطق، سعيا منهم للكشف عن أسرار الكون وحقيقته. "فالشعر في التجربة الصوفية مرتبط بالجمال والانفلات من قيود العقلانية في التعامل مع الأشياء. ويبقى المعيار الأول لإدراك شعرية النصوص الصوفية هو مدى كشفها السحري عن الغيب، وفتح أبواب لا نهائية لمعرفة حدسية وفنية للكون وخالقة والإنسان والوجود ككل، ويتحقق الجمال بامتداد هذه اللانهائية التي تزيد الشوق والرغبة في المزيد من المغامرة. "[1]

تتشابه التجربة الصوفية مع التجربة الشعرية في كون كليهما تجربة روحية تجنح نحو الكشف عن الحقيقة الوجودية للكون، ولعل هذا ما جعل "صلاح عبد الصبور" يقول إن من أكثر الجوانب حساسية التي تتشابه فيها التجربة الصوفية والشعرية " ما تسعى إليه كل من التجربتين، فكلاهما محاولة للإمساك بالحقيقة والوصول إلى جوهر الأشياء."[2]من خلال تجاوز المادي والسفر نحو المطلق، إنهما نوع من المعرفة الماورائية التي تكشف ما وراء الواقع.

وتتقارب التجربة الشعرية مع التجربة الصوفية في المنبع والغاية، " فمن حيث المنبع تلتقي التجربتان في الرؤيا التي تدفع صاحبها إلى استبطان العالم، ومن حيث الغاية فإنهما تلتقيان في خلق عالم لا واقعي عن طريق توحيد المتناقضات، أو توحيد ما يبدو متناقضا."[3] إن كلا من الشعر والتصوف يسعيان إلى خلق عالم أكثر كمالا من العالم الواقعي.

هذا ومن خصائص أهل التصوف ميلهم إلى العرفان. ولابد من الإشارة إلى أن أول شيء يثير الانتباه في مصطلح العرفان هو "أن النزوع الغالب فيه ليس المجال الأخلاقي عبر الصفاء الذي يميز جوهر التصوف، وإنما المجال المعرفي من أجل بلوغ معرفة عليا هي المحكمة الإلهية. "[4]فالعرفان منهج يعبر بالروح نحو الحقيقة الأسمى، وهو ليس مجرد معارف عقلية بل هو إشراق رباني يقذفه الله في قلب السالك لينير بصيرته. إنه "علم ومعرفة، إنه فيض نور من الله تعالى يشرق على صفحات القلب، يهدف للوصول إلى معرفة الله، والفناء في بساط القرب والبقاء فيه..."[5]،العرفان مسلك لا يتخذ من المنطق العقلي أداة للمعرفة، ولا يرى في الحواس وسيلة كافية لإدراك الحقائق؛ بل هو نهج يقوم جوهره على البصيرة الوجدانية والفيوضات الإلهية، فالوجود في رؤية العارفين ما هو إلا تجليات للذات الإلهية، وصور تعكس بهاء الخالق وعظمة كماله.

العرفان عند أرباب هذا المسلك ـ إذن ـ يشير إلى نمط معرفي خاص غايته إدراك الذات الإلهية وأسمائها وصفاتها، وكذا فهم الوجود. وهي معرفة كما تبين سابقا لا تتوسل بالاستدلالي العقلي المنطقي ولا بالتجربة الحسية المادية؛ بل تنبثق من المشاهدة القلبية والاستبصار الباطني. إنها تجربة إدراكية مباشرة تتسامى فوق حدود الحواس وتتجاوز أطر العقل المجرد، وتتحقق للسالك حين تنجلي الحجب وتزول الموانع عن مرآة القلب، وذلك عبر مجاهدات السير والسلوك، ومواجيد الجذب الروحي التي تفتح آفاق الكشف.[6]

وبهذا يكون الفرق الجوهري بين التصوف والعرفان في كون الأول مسلك عملي ومنهج حياتي يبتغي تطهير النفس والارتقاء بها في معارج القرب الإلهي، بينما يتجاوز العرفان حدود السلوك ليكون مذهبا فكريا عميقا يرتكز على الكشف والذوق الوجداني. إن العرفان علم يمنح صاحبه بصيرة فذة تتخطى حدود العقل دون أن يخالفه.[7]

التجربة العرفانية والبنية المعرفية في الشعر الجزائري المعاصر:

إن القارئ للشعر الجزائري المعاصر يجد أن الشعراء الجزائريين قد ابتدعوا شعرا رؤيويا ممزوجا بنزعة العرفان الصوفي والإلهام النوراني. والمتأمل في شعرهم يدرك أنه أمام حساسية شعرية جديدة تصنع براءة الأشياء حين تنصهر بالذوق الصوفي، سعيا منهم لمعرفة أسرار الكون وخالقه والإنسان والوجود ككل.

وقد لجأ الشعراء إلى العرفان القائم على الذوق بوصفه الوسيلة التي يمكن من خلالها الكشف عن الحقيقة، بعدما وجدوا أن العقل قاصر في أثناء بحثهم عن الحقيقة. "فالتعارض موجود بين الحقيقة التي تعبر عنها الحضرة الإلهية وبين تفسير العقل لها، فالعقل لا يستطيع إلا أن يقبل بالظاهر الذي ينحصر في أمر محدود وهذا هو حده، بينما الحقيقة متكثرة تأبى الحصر، فيلزمها الذوق الباطني الذي يكشف عن أسرارها التي لا تنتهي."[8]

فهذا مثلا الشاعر **عبد الله العشي** في ديوانه **"صحوة الغيم"** يجنح نحو ربط المعرفة بوصفها كشفا بالمحبة كأداة معرفية للكشف عن هذه الحقيقة التي يعجز العقل عن إدراكها. يقول:

إلى...

صحوة أنتظرها

وغيمة أتوقعها

و أبجدية تعبر بمائها سلطان المسافات[9]

إن المتأمل في هذا المقطع يجد تكثيفا رائعا لجوهر العرفان الصوفي، حيث تستحيل القصيدة من كونها مجرد كلمات إلى حالة من الانتظار والترقب والعبور الروحي. فها هو عبد الله العشي يفتتح مقطعه بحرف "إلى" تاركا الغاية مسكوت عنها، مما يوحي بأن وجهة الشاعر ليست مكانا معلوما، بل هي سفر نحو المطلق، نحو الحقيقة الإلهية أو الذات العليا. فالمقصد أعظم من أن يحويه لفظ، إنه سفر روحي نحو الآفاق المخفية لبلوغ الحقيقة.

وأما في قوله **"صحوة أنتظرها"** في العرفان (الصحو) هو نقيض السكر الصوفي الذي هو العودة إلى الوعي بعد الفناء في المحبوب. الصحو ههنا هو الاستفاقة من عالم المادة، أي تطهير النفس وتلقين الروح على المجاهدات الروحية، فالحقيقة تبدأ بالصحو الروحي. و**"غيمة أنتظرها"** الغيمة ههنا رمز للعطاء الإلهي (الفيض)، وهي تمثل الستر الذي يحمله في طياته المطر/التجلي. التوقعات هنا ليست مادية بل هي انتظار لإشراقة معرفية تهطل على قلب الشاعر لتحيي يَبَاسَ روحه.

وإذا انتقلنا للبيت الأخير **"و أبجدية تعبر بمائها سلطان المسافات"** نجد الشاعر ينتقل من الحالة الشعورية / الانتظار إلى الأداة/ اللغة، فالأبجدية ههنا ليست حروفا للهجاء، بل هي لغة

خاصة تتجاوز الجاهز وتهدم الأساليب المألوفة، لغة تسعى إلى قول ما لا يمكن قوله باللغة العادية التي تقف عاجزة عن التعبير عن حالة الشاعر. تلك الحالة التي " لا يمكن شرحها بعبارات صريحة جلية وإنما بألفاظ مقتضبة تشير إلى معان خفية لا يدركها إلا من نازل تلك الأحوال، وعاش تلك المقامات."[10] وفي قوله "سلطان المسافات" هو تعبير مدهش يجسد عمق المسافة بين العبد ومعبوده، أو بين الشاعر والحقيقة، وأن العبور من خلالها يحتاج إلى مجاهدات ورياضات روحية.

"إن الشعر والعرفان صنوان، كجناحي طائر، إذ يماهي العرفان الشعر، حين يعجز العلم عن حل المشكلات التي تؤرق الشاعر، ويقف العقل عند حد ما يقال، فيكمل الشعر العرفاني دورة الوجود ويقول ما لم يقل من دون وساطة العقل وجدية العلم."[11] إن المقصد العرفاني هو نهاية التخلص من الكثرة للوصول إلى الذات العليا، يقول عبد الله العشي:

في الفضاء البهي البعيد..
عند مبتدأ الضوء والصوت واللون والكلمات...
لا نشيد سوى بوحها
منه تولد أفراحنا
وتتيه بمعراجهن السحب
ما أرق الصباح، وما أجمله
(لست أعنيه
إني أصرح باسم ولا أقصده)
لي صباحي، ولي زهر أغنيتي
لي فجري أطويه و أنشره
لي جمر المعاني، ولي صهد
كلما هزجت بالأغاني انسكب
.....
.....[12]

إنه بوح صوفي عرفاني فحواه التجلي الذي هو أصل المعرفة، والتجلي الإلهي هو انعكاس جوهري لعلاقة الحق بالخلق. ففي ذلك الفضاء البعيد عالم الغيب أو المطلق تتلاشى الفواصل الحسية بين الضوء والصوت واللون والكلمات لتتوحد في فضاء بهي يرمز للجمال الإلهي، وكلمة "البعيد" تشير إلى أن بلوغه يحتاج إلى مجاهدة روحية، حيث يترنح الشاعر بين الشعور بالجمال وبين الشعور بالجلال. فالعارف يدرك أن كل موجود هو "مجلى أو مظهر للواحد الحق، أي صورة

جزئية للكل المطلق ولذا لا يقال في أي موجود إنه الحق إطلاقا وإنما يقال إنه الحق تجلى في صورة من الصور."[13]

إن عبد الله العشي " يمتهن البوح لأنه خبر الحالة العرفانية وسيطر على اللغة."[14]حيث عمد إلى ابتداع لغة خاصة تتصالح فيها المتناقضات وتتعانق المتضادات لتتماهى فيما بينها. يقول:

تركت إيقاعها يحكي بلا لغة

عن وردة الكون

عن أسرار أخيلتي

عن بهجة الرمز

عن إغواء توريتي[15]

في هذا المقطع يجمع عبد الله العشي في تجربته الصوفية بين العرفان وحداثة اللغة، حيث نجد اللغة هنا لا تصف الأشياء بل تومئ إليها، حيث افتتح المقطع بنوع من الهروب الواعي عن سلطة اللغة المعجمية الجاهزة، للإبحار في رحاب المطلق عبر لغة جديدة خارجة عن المألوف. فما الإيقاع في هذا المقطع إلا نبض التجربة العرفانية، فالشاعر يريد الوصول إلى حالة من الصمت البليغ أين تحكي التجربة نفسها بنفسها دون وسائط لغوية قد تشوه صفاءها.

ففي قوله **"عن وردة الكون"** نجد أن الوردة ليست مجرد كائن نباتي، بل هي رمز للتجلي والجمال الإلهي المتجذر في الوجود، وتوظيفه كلمة الكون يمنح تجربته بعدا شموليا، فالشاعر هنا لا يبحث في التفاصيل الجزئية وإنما في التفاصيل الكلية للجمال. وفي قوله "عن أسرار أخيلتي" ينتقل من الكون/ الخارج إلى أخيلته/ الداخل التي تعد محرابا يوزع فيه العارف مشاهداته، وقد وصفها بالأسرار ليؤكد على خصوصية التجربة العرفانية التي لا تفشى إلا بلغة بعيدة عن المدرك والمألوف والواضح السهل. فالرمز في قوله "بهجة الرمز" ليس غموضا بل هو بهجة وكشف، إنه الأداة التي تسمح بقول ما لا يقال. وعن توريته التي تحمل المعنى القريب الظاهر والمعنى البعيد الخفي يجسد لنا الشاعر ثنائية الظاهر والباطن التي يقوم عليها العرفان، وأما كلمة "إغواء" فهي تشير إلى جاذبية النص التي تغوي القارئ وتجذبه للكشف عن تجربته العرفانية المتوارية خلف الحجب.

" فالشاعر بطبيعته عرفاني في مستوى من المستويات، خصوصا إذا صارت الحقيقة بالنسبة إلى هذا الشاعر قضية وجودية، والعرفاني بطبيعته شاعر في مستوى من المستويات لأنه لا يستطيع أن يقدم ما كشفه من أسرار الوجود من خلال اللغة العادية، يحتاج إلى لغة الشعر."[16]

وإذا انتقلنا إلى الشاعر **"حسين زيدان"** فإننا نجده قد آمن بأن العرفان هو الجسر الذي يؤدي لتحقيق إنسانية الإنسان، وهو بذلك يرى أن الطريق إلى الله ما هو إلا رحلة لترسيخ فطرية الإنسان.

وتعد قصيدته المطولة **"عودة حي بن يقظان"** نصا شعريا يحمل كثيرا من السمات العرفانية، حتى لكأنه نص يعود لكبار العارفين في الثقافة الإسلامية. فقد استثمر حسين زيدان بعبقريته وإبداعه أفكار الفيلسوف "ابن طفيل" استثمارا بارعا، فأعاد تكوين شخصية "حي بن يقظان" وتجسيدها وفق رؤيته الخاصة، فكتب هذه القصيدة سنة 1994 وأهداها إلى مسلم 2020.

1ـ البحث عن حي بن يقظان/ معرفة الذات

لقد بحث الإنسان عن "حي" في مراحل " روحية بسفينة التصوف والزهد... وبحث عنه الإنسان في مراحل "عقلية" بسفينة الفلسفة والفكر.. وبحث عنه في مراحل " العاطفة المستثناة" بسفينة الثورة والتمرد.. لكن ظهور حي بن يقظان لا يتم إلا بمعاينته في مرسى السفينة الأولى.. ونادرا ما يحضر في السفينة الثانية.. ومن سنة الله في خلقه أن حي بن يقظان يأتي بذاته في السفينة الأولى.. وقد يكلف إبسالا ليكون ربان السفينة الثانية.."[17]

يبدو أن "حسين زيدان" قد وجد في السفينة الصوفية التي يقودها "حي بن يقظان" والمحملة بالعرفان سبيلا لبلوغ حقيقة الوجود. فالصوفية التي يتوجها العرفان ما هي إلا رحلة تقصد أعماق الروح وأسرارها، وتنشد الانعتاق من قيود الوجود المادي للأشياء، طمعا في ملامسة جوهر الحقيقة الكامن وراء حجب الظاهر.

يقول:

فجأة..عاد حي بن يقظان..ولم يكن ظهوره مفاجئا لأولي الألباب الذين أوتوا من علامات السنن ذكرا..

ها هو الشاعر يتوقع عودة "حي بن يقظان"، الذي يمثل ذلك الإنسان المنقذ والمخلِّص والحامل لواء الهداية والداعي الناس للتمسك بجوهر العقيدة، "فبعد أن كانت مهمة سيدنا محمد ﷺ انجاز عملين جليلي الخطورة: تصحيح عقيدة الإنسان، وبناء حضارة، واقترن ذلك بالفطرة الفائقة أكثر من حضور المدد العلوي في شكل كرامات ومعجزات.. وكانت وفاة الرسول الأعظم نهاية لهذا الضرب من المدد.. وبداية البحث عن [حي بن يقظان].."[18]

يقول الشاعر:

إلا حديثا في الورى

في ذات حشد من زحام..

قالوا: سمعنا عن فتى
في الغابرين...وأي عام!..
"حي بن يقظان" يقال
و أنه صار الإمام!..
ليقود من قد زلزلوا
في الأرض من أدنى مقام..
وإلى الجزيرة فتحه
والسرب يتبعه الحمام..[19]

إن البحث عن حي بن يقظان هو بحث عن الإنسان في فطرته الأولى والنقية، وكأن "حي" ذلك المخلص المنتظر الذي يعود لانتشال أمته من قيود الحضارة المادية الطاغية-(ليقود من قد زلزلوا/ في الأرض من أدنى مقام)- بما تزرعه من تلوث في القلب والفكر معا. ووفقا لرؤية الشاعر فإن هذه الحضارة واجهة لخراب داخلي يعصف بالمجتمعات التي ارتقت تكنولوجيا وانحدرت روحيا. لهذا وجد في عودة "حي بن يقظان" بارقة أمل لإنقاذ الإنسانية من دمار الروح الذي خلفته هاته الحضارة.

أفلا أقول لكم:
أنا لا أفكر في ذهاب، أو مراوحة
الصدف!..
تجدونني من بعد عودتكم إلي
لأننا، وإن افترشنا تربة،
فلنا سماء تختلف!..
سنقوم للفتح الكبير
إذا وقفتم تحت نار الصحو مثلي،
ليس يوقف عزمنا أبدا طرف!..[20]

يؤكد "حسين زيدان" في هذا المقطع على ضرورة الصحوة الروحية، ويقصد بها الاستفاقة من غفلة المادة، وإصلاح النفس والقلب من الخواء الروحي، إنها (أي الصحوة) تجنح نحو الإنسان الذي فقد معنى الوجود لكونه يعيش في كنف حضارة غارقة في الماديات. لهذا تصور" الصحوة لحي بن يقظان انبعاث الإنسانية من مرقدها، خروجا من ظلمات الرذائل إلى نور الفضائل، تدرجا في سلم الحقيقة، وابتعادا وتطهيرا من مرض القلوب التي في الصدور، وعلى رأسها الجهل المركب، والكبر المغرور، والوهن الأعمى، والخوف من الأغبار، والقلق من الغد الغائب."[21]

2- فتنة الجماهير بحي.. وأول صراع ضد تحويله إلى وثن مقدس

إن أصعب الرحلات عند "حسين زيدان" تلك الرحلة نحو إصلاح النفس البشرية وتهذيبها، الرحلة التي تغوص داخل أغوار النفس البشرية للبحث عن إنسانية الإنسان الحقيقية الفطرية المنزهة عن الشوائب التي علقت بها، فهي تعد "بحثا متواصلا عن إمكانيات تجاوز حدود الإدراك البشري القاصر، وشكلا من أشكال التطلع البشري إلى تحقيق مفهوم الكلية في المعرفة/ القدرة/ الحضور."[22]

يقول الشاعر:

أفلا أقول لكم:
فلتذهبوا للفتح، لكن
فتح أنفسكم أريد..
هو أم معركة الشرف!..
فلتذهبوا..
هي أطول الرحلات، أدناها إلينا
إن أشقاها علينا..
حين نصلح ما تلف!..[23]

بعد أن رأى حي انصراف قومه عن الدين، اشتد خوفه عليهم " وطمع أن تكون نجاتهم على يديه، وحدثت له نية في الوصول إليهم وإيضاح الحق لديهم وتبيينه لهم.. "[24] فقد أراد حسين زيدان من خلال معرفة "حي" الولوج إلى لب قلب الإنسان بوصفه كيانا روحيا، ليربيه على ملازمة الحق سبحانه وتعالى، ويخرجه من عالم المادة إلى عالم الروح، أي إرجاعه للفترة التي فطر عليها.

3- حي يناجي ربه..ويعترف بقساوة الرحلة..

لا شك أن حسين زيدان مسكون بهاجس الرحلة الروحية المتخيلة، لهذا نجده يصف ويصور لنا "حالة حي بن يقظان" وهو يناجي ربه ويعترف بقساوة الرحلة قبل أن يتأهب للرجوع مرة ثانية لهداية قومه فيقول:

ربي عجلت إليك في هذا السحر..
أخفي ارتعاشي.. ذاهلا
طير يبلله المطر..
ضاقت، وكنت أظنها بيدي تمر
فلم تمر..
ضاقت، فذقت فجاجها

والآن أدركت الخبر..

رباه.. دونك "لا مساس السامري"

ودونك اللهم، ما أقسى السفر!..

رباه ما أحلى العروج إليك

ربي لو أطيق الصبر جئت على أحر!..

فإليك قدني.. ياإلهي..

إن لي زادا قليلا

مرمري الحلم، أحيا ضامئا،

أهفو- ليس بعد رو ائه- مر لمر..[25]

ها هو "حي" يقف عند عتبات العودة إلى واقعه، لكنه يعود بروح مغايرة صقلتها ليلة شهود، حيث استحال العشق حبا خالصا للذات الإلهية، فأخذ يناجي ربه، بعد أن" أشرقت نفسه بحياة جديدة، امتزج فيها العقل بالقلب، والعرفان بالوحي، والعلم بالعمل، ولم يبق في خلده مجال لليأس والقنوط ولا ميل للعزلة والانزواء، فرفع رأسه في الليلة المقمرة إلى نجوم السماء، وسماء الوجدان وهمس: "لبيك يا رب"، وكأن نشوة النصر المعهودة إليه تجاه الأعاصير... تلهب كيانه حماسا وإقداما، ولكن هذه المرة في دائرة النور والكتاب المسطور."[26] يصور لنا "حسين زيدان " لحظة التحول من "حي" الباحث عن الحقيقة بعقله إلى حي الفاني في الذات الإلهية بروحه، إنها لحظة الاعتراف بأن الحقيقة لا تأتى بالعقل فقط وإنما تذاق بالقلب كذلك.

في ذلك الفجر المودع للسحر

انساب لحن الصمت فيه هنيهة

ثم انكسر

وتلفعت شفتاه بالكلمات

ميهمة الوتر

للمرة الأولى يحس بجذوة عظمى

تمور بنفسه

أو مثل أطوار ثلاثة

مثل ألغاز[التكون والفساد]..

ويحس إن لم يبدها

بالكون، يصبح من رماد..

وإذا تبطنها، فحتما ينفجر! ..[27]

إن حي هنا شاهد الثلث الأخير أدرك بحكمته ومعرفته بالذات العليا مسؤوليته الأخلاقية تجاه قومه المحاصرين في دياجير الظلمات، الأمر الذي دفعه إلى استئناف الرسالة وتبليغها، وتتجلى غايته الجوهرية في تحقيق نهضة شاملة تبدأ بتطهير القلوب وإصلاح النفس وصولا إلى تصحيح المسارات الفكرية والعقلية معا.

5- حي يناجي نفسه، ويمتثل لما يخيل إليه أنه يؤمر به

يقول الشاعر:

قلبي يفتش عن حبيب
ليس يشبهه حبيب..
قلبي نفس
يسع الجزيرة حبه
لكنه أبدا غريب..
إن قلت يا قلبي رويدك
إن من تهوى سر ابا يختلس..
قال انتظرني لحظة
ليوزع الحب البريء[28]

لقد فاض قلب "حي بن يقظان شوقا إلى لب قلبه النقي الطاهر، وكأنه يتأمل جوهره يبحث عن ذاته، ويستقصي صورته الضائعة منه،" لأنه اقتنع أن الإنسانية خلقت من نفس واحدة، فلا يطمئن الإنسان، ولا يرضى إلا بإفراغ حلة السعادة على البشرية كلها، ولا تبرأ جراح النفوس وآلام القلوب، إلا باتحادها وجمع شملها وانغمارها في نور السماوات والأرض ورجوعها إليه."[29]

5- حيرة المعرفة/ حيرة القلب

لا شك أن الحيرة ضرورية لتحقيق المعرفة. إنها تأمل ومجاهدة واغتراب، وترقب للحظة التجلي. فهي "حالة يمر بها الصوفي السالك لطريق المعرفة ومدى وعيه بالجزئيات الوجودية المتناقضة، وهي كذلك تدفع إلى القلق الفكري والمعرفي لكشف الحقائق العرفانية، وهنا تبدأ حيرة الصوفي."[30] يقول الشاعر:

مرت على حي ليال أربع
كان الوجوم يؤمه
وكأن أهداب العيون على جمار
من لهب..

فأحاطه سلمان بالحرص الذين بدت

بلادتهم تدب ولا تدب!..

ما كان حي حينها يلقى الجموع

سوى ليرمقهم مليا

ثم يمضي في سلام..

ويحادث الأشجار والطير المسافر والغيوم

ويصطفي رشفاته من كل ساقية تمر

ولا يعاتب من ينام..

في هدأة الليل استفاق على وميض

كالرخام..[31]

يبدو أن الحيرة عند حسين زيدان هي حيرة القلب وهي منهج لمعرفة الحقيقة الإلهية، وهذه الحيرة التي استوطنت أعماقه هي في الحقيقة حيرة " الوجه الآخر للأشياء في توحده وتوهجه، وما يكتنزه من حقائق"[32]، هي الحيرة التي تصيب العارف عندما يتجلى له الحق في صور شتى. إنها دهشة أمام اتساع الوجود الإلهي.

وعندما فرغ "حي بن يقظان" من مناجاة ربه مع تباشير الصبح، التفت نحو "إبسال" ليلقي عليه حكمة بليغة في أقدار الأمم قائلا: " عندما يريد الله أن يعلي شأن أمة، فبسلامة عقلها ونور قلبها، وقوة إرادتها، ومتين عزمها في دائرة الحق المطلق مع نور البصيرة وقوة العزم، وعندما يريد أن يدمر أمة فباضطراب عقلها، ومرض قلبها، ولا علاج لها إلا بالرجوع إلى صواب التفكير واستقامة السلوك، وتعلق الهمة بالحق، وقوة العزم في طرق الحق."[33]

يقول الشاعر:

ورآه إبسال فقال:

- والله، قد حل الذي كنا نظن به

على عقل الفتى

ويحين منا الاستلام..

أمسك علي عيون خوفي،

قال إبسال وقام..

كالطفل حي..ضم راحته إلى صخر عتيد

حين زاحمه الكلام

عجبا لقوم ما رأوا شمسا تطل على

الروابي مرة، إلا وظنوا أنهم للشمس

حقا مبصرون!..

عجبا لقوم يحسبون اللون لونا

والسحاب الحر ما أسرته دائرة

العيون.. عجبا لمن كانوا، وأعجب حين

يجهل ما يكون..[34]

بينما كان "حي" غارقا في تأمل أسرار الوجود، استوقفه حال قوم يظنون أنهم برؤيتهم ظواهر الأشياء إنما كشفوا عن حقيقتها المطلقة. ولكن العارف يدرك جيدا أن كل موجود إنما هو انعكاس وتجل للواحد الحق، فالموجودات ليست هي الحق بذاته، بل هي صور جزئية تشرق من خلال أنوار الحقيقة المطلقة. "لا يُعرف الحقّ سبحانه من حيث ذاته، فهي الكنز المخفي... وإنما يعرف من حيث صفاته وأسمائه متجلّية في صفحة الوجود، فلا يعرف أحد من الله إلا بقدر ما يعرف من الوجود، ويجهل كلّ واحدٍ من الله بقدر ما يجهل من الوجود. فمعرفة الحقّ إذا متوقفة على العارف، ووجود العارف متوقف على الحقّ."[35]

يقول :

أصفى المشاهد: كل ما حضر الوجود

وما تغيب سوى العيون..

والشمس، لا شمس سوى ما قد ترانا

والسحاب الحر ما التحم اعتلاء أو سكون

عجبا لقوم ما وعوا أن الوجود الحق

ليس بما نراه، و إنما ما قد يرانا

عجبا لهم: ما كان بعدهم ليجني قربهم

لكنهم للقرب هم متأسفون!..

عجبا لهم: وكأنني وحدي أغني:

أمصابهم جلل، ترى،

أم: بي جنون؟![36]

إنه بوح صوفي فحواه السفر في خبايا الغيب للاتحاد مع المطلق، فها هو "زيدان" يسافر مع "حي بن يقظان" في حضرة الملكوت، حيث يرمز العارفون "للجمال المطلق بالشمس وللجمال النسبي بأشعتها، حيث يعتبرون الشمس هي الذات الكونية، وأشعتها هي الذات الفردية."[37] إن "حي"

ههنا مولع بالبحث عن الصحيح، فكانت مهمته كشف الموجود لا البحث عن المفقود، وبهذا يكون العرفان دليلا على "الشهود ويتخذ من الإشراق مقولة لتجلي الحق سبحانه وتعالى في العالم."[38]

يمكن أن نسمي تجربة "حسين زيدان" العرفانية بتجربة الطريق، لأنه يؤمن بالسفر الروحي نحو الآفاق المخفية لبلوغ الحقيقة، وذلك بتطهير النفس من عالم المادة، وتلقين الروح على المجاهدات والرياضات الروحية.

6ـ تحرير طفل المعاني/ حقيقة الإنسان الفطرية

إن الرحلة العرفانية عند حسين زيدان هي سفر نحو عالم الطهر والصفاء، وقد رمز لهذه الرحلة بتحرير طفل المعاني، وهو من المعنويات المقدسة في عالم اللاهوت، يقول:

حيا على طفل المعاني

حيا على طهر بمريم

أو بزمزم والشراب..

إذ قلتم: يا حي لن نلقى الجزيرة قبل أن

نلقى الجواب:..[39]

ففي باطن كل إنسان طفل طاهر يمثل إنسانيته الحقيقية الفطرية، وقد أراد "حسين زيدان" أن يحرر ذلك الطفل المقيد والمكبل بأصفاد حُجُبِ النفس وظلماتها. وإذا استحالت إنسانيته إلى عالم الروحانية انكشف ذلك الطفل ووجد حلاوة السعادة وفني عشقا في رحاب حب الله تعالى. "والمراد من الروح القدسي، الإنسان الحقيقي الذي أودع في لب القلب، ويظهر وجوده بالتوبة والتلقين، وملازمة كلمة لا إله إلا الله بلسانه أولا، وبعده بحياة القلب وبعد حياة القلب يحصل بجنان اللسان."[40]

6- الكشف عن كنه "حي بن يقظان"

يقول حسين زيدان:

قالوا: عصى حي أباه..

حي: ابن من؟؟!..

لم تدر ما قالت سنونوة الصباح

ولا متى انتظروا سواه!..

حي بن يقظان ترى

أم حكمة ال

عرفان قامت

في الجزيرة.. رحلة؟!

عصت الجموح، وكلت الأكناه..

حي.. وهذا الحي بن يقظان..

وأمام سيمرغ الهدى

هو مسلم قرآني..[41]

ها هو" حسين زيدان يكشف" أخيرا عن حقيقة "حي بن يقظان" فقال أنه هو" نفسه روح بن قرآن، والمعروف أيضا بعقل بن قرآن"[42] حي بن يقظان هو الإنسان المنشود، المسلم القرآني الحامل للتغيير، والشغوف بالبحث عن الصحيح، والملتزم بالمنهج الرباني والعقلاني معا.

الخاتمة:

بناء على ما سبق من تحليل ورصد لملامح العرفان الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، يتبين أن الشعراء الجزائريين قد استطاعوا بعبقريتهم وإبداعهم استثمار أدوات العرفان الصوفي، إذ جنحوا نحو لغة تسعى إلى قول ما لا يمكن قوله، ووصف ما يأبى أن يوصف، فاللغة المعيارية بعقلانيتها ومنطقيتها أصبحت عاجزة أثناء سعيهم للكشف عن جوهر الوجود وحقيقته.

إن العلاقة بين الشعر والعرفان هي ضرورة وجودية تمليها طبيعة التجربة الروحية التي تعجز اللغة العادية على احتوائها، فالشاعر في معانقته الحالة العرفانية إنما وجد المنفذ لمعرفة الحقيقة الإلهية، والعودة إلى الفطرة الإنسانية السليمة، وكذا الوسيلة للتعبير عن معاني الإشراق التي تمنحه التوازن المفقود بين عالم المادة وعالم الروح.

الهوامش والإحالات:

[1] ـ سحر سامي، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2005، ص 59.

[2] ـ سامح الرواشدة، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1988، ص114.

[3] ـ منير خليل الخطيب: الأبعاد الصوفية في شعر أدونيس، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2000، ص7.

[4] .محمد شوقي الزين: التصوف، الغربلة، الكنان، غربلة في المصطلح وقفزة في الرؤية، مجلة العرفان للدراسات الصوفية، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، العدد1، 2028، ص12.

.

[6] - ينظر فادي ناصر، البعد العرفاني وعلاقته بالتصوف، 24 أكتوبر 2022، 22مارس 2026 https://sufirfan.org/

[7] .ينظر، محمد عبد الله فضل، التصوف والعرفان...هوية وآمال، 18 مارس 2018، 22 مارس 2026 https://www.al-akhbar.com/Opinion/30219

[8] .محمد خطاب: إستطيقا التصوف عند محي الدين بن عربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017، ص41.

[9] . عبد الله العشي: صحوة الغيم، فضاءات، عمان، ص5.

[10] .أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص 29.

[11]- فريال الحاج دياب، البعد العرفاني في نص محمد علي شمس الدين الشري من خلال التكرار والحقول المعجمية، مجلة وميض الفكر للبحوث، لبنان، العدد 28، 2023، ص 235.

[12]ـ عبد الله العشي: صحوة الغيم، ص 20، 21.

[13]- محي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تعليق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1980، ج1، ص94،95.

[14]ـ يوسف وغليسي، في ظلال النصوص (تأملات نقدية في كتابات جزائرية)، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012، ص173.

[15].عبد الله العشي: صحوة الغيم، ص 45.

[16].علي مهدي زيتون، الشعرية بين الرمز والعرفان، معهد المعارف الحكمية، 2017، ص70.

[17].حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، ط1، 2002 ص33،34.

[18].المرجع نفسه، ص33.

[19].نفسه، ص37-38.

[20].نفسه، ص40.

[21]- المهدي بن عبود، عودة حي بن يقظان، وكالة شراع للنشر، طنجة، المغرب، ط1، 1997، ص88.

[22]عبد الرحيم علمي، أدب الرحلة الصوفية في الغرب الإسلامي دعوة الحق، مجلة المغرب، 200 العدد 350،

[23]-حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص 40، 41.

[24]-المهدي بن عبود، عودة حي بن يقظان، ص 62.

[25]- حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص 61، 62.

[26]- المهدي بن عبود: عودة حي بن يقظان، ص4.

[27]- حسين زيدان: شاهد الثلث الأخير، ص 44/43.

[28]- نفسه، ص 61/60.

[29]- المهدي بن عبود، عودة حي بن يقظان، ص 63.

[30]-محمد سحواج، المصطلح الصوفي العرفاني في شعر الأمير عبد القادر من الكشف إلى الحقيقة، ص67، نقلا عن محمد العدلوني، تأملات الفكر الصوفي الأندلسي، ص205.

[31]– حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص43/42.

[32]- عبد القادر فيدوح، أيقونة شعر الفيلوصوفيا، على الرابط: www.naturahspublishing.com

[33]- المهدي بن عبود، عودة حي بن يقظان، ص20/19.

[34]- حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص 44/43.

[35].فادي ناصر، البعد العرفاني وعلاقته بالتصوف، نقلا عن، محي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، تعليق: أبو علاء عفيفي، انتشارات الزهراء، ط3، ص91.

[36]- حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص44.

[37]- أحمد بلحاج وآية وارهام، الرؤية الصوفية للجمال منطلقاتها الكونية وأبعاده الوجودية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص235.

[38]- فرح ناز رفعت جو، العرفان الصوفي عند جلال الدين الرومي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص196.

[39]- حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص 57.

[40]-عبد القادر بن موسى الجيلالي، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2007، ص 10، 11.

[41]ـ حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، ص73، 74.

[42]- نفسه، ص73.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.
2. أحمد بلحاج وآية وارهام، الرؤية الصوفية للجمال منطلقاتها الكونية وأبعاده الوجودية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.
3. حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، ط1، 2002.
4. سامح الرواشدة، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1988.
5. سحر سامي، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
6. عبد القادر بن موسى الجيلالي، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2007
7. عبد الله العشي: صحوة الغيم، فضاءات، عمان.
8. علي مهدي زيتون، الشعرية بين الرمز والعرفان، معهد المعارف الحكمية، 2017.
9. فادي ناصر، البعد العرفاني وعلاقته بالتصوف، 24 أكتوبر 2022، https://sufirfan.org/
10. فرح ناز رفعت جو، العرفان الصوفي عند جلال الدين الرومي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
11. فريال الحاج دياب، البعد العرفاني في نص محمد علي شمس الدين الشري من خلال التكرار والحقول المعجمية، مجلة وميض الفكر للبحوث، لبنان، العدد 28.
12. محمد خطاب: إستطيقا التصوف عند محي الدين بن عربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017.
13. محمد شوقي الزين: التصوف، الغربلة، الكنان، غربلة في المصطلح وقفزة في الرؤية، مجلة العرفان للدراسات الصوفية، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، العدد1، 2028
14. محمد عبد الله فضل، التصوف والعرفان...هوية وآمال، 18 مارس 2018، https://www.al-akhbar.com/Opinion/30219
15. محي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تعليق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1980.
16. المهدي بن عبود، عودة حي بن يقظان، وكالة شراع للنشر، طنجة، المغرب، ط1، 1997.
17. يوسف وغليسي، في ظلال النصوص (تأملات نقدية في كتابات جزائرية)، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012.